

الأُويب

إبراهيم نصر الله

إبراهيم نصر الله

الأدب تنقية للذاكرة وأنسنة للتاريخ

السرد: القوة والتمثيل والمقاومة.

الشعر: الذهاب بالذات نحو المطلق الإنساني، والكشف عن إضاءات الكينونة.

عبد الله بريعي *

هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟ "إنها تصبح ملكا لأعدائنا"

أعراس أمنة، إبراهيم نصر الله

لا أدعي أن تأملي لأعمال الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله سوف يغطي التجربة في كليتها، أو يزعم الإحاطة الشاملة بمحتويات فصولها، وإنما هو تأمل نقدي اعتمدت فيه على استراتيجية قرائية انتقائية ساءلت مواضع من التجربة وتجاوزت أخرى يقتضها نسق هذه الاستراتيجية. من ثمة أتوسل في تأملي لها بأفقيين قرائيين:

- أفق داخلي يحاول الكشف عن بعض عناصرها الدلالية والجمالية والمرجعيات البانية لها.

- أفق خارجي يحاول أن يفتح هذه التجربة على بعض القضايا التي يرتبها سؤال الأدب والإبداع عموماً. لذلك تطمح هذه الدراسة إلى تشييد مقاربة ترتكز على موضوعتين أساسيتين توظران هذه التجربة وتمنحان إياها قيمتها التعبيرية والجدالية، يتعلق الأمر بموضوعة؛

1- الكتابة وإنقاذ الذاكرة؛ ما يجعل من الأدب مطلباً شرعياً ورهاناً حقيقياً يستعيد من خلاله الكاتب حقه في استملاك تاريخه الخاص كمركز لشرعيته أو لرفض الهيمنة عليه "أنا لا أقاتل كي أنتصر ولكن كي لا يضيع حقي"². ويتبدى هذا على نحو خاص في قدرة السرد على تمثيل الهويات والجماعات والثقافات؛ واعتبار السرد الروائي

* جامعة مولاي إسماعيل - الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية- المغرب.

2 - إبراهيم نصر الله: زمن الخيول البيضاء، (المهارة الفلسطينية) الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف الطبعة الرابعة كانون الأول - 2009.

خصوصاً صيغة من صيغ المقاومة الثقافية وتفكيك المركزية، في اتجاه قيم بديلة تسلم بالتعدد والاختلاف والحوار. والرواية تسعى انطلاقاً من كل ذلك إلى تشييد هوية جديدة يعطى فيها للمتخيل مكانة أساسية، باعتباره أفقاً للذات والجماعة على حد سواء. ويكون قادراً على انتقاد ما هو سائد؛ أي لكل ما يشيئ ويحقر ويهدم القيم التي تعطي معنى للإنسان¹.

2- قدرة الشعر على الذهاب بالذات نحو مُطلقها الإنساني، والكشف عن إضاءات الكينونة وفضح رتابة العالم ليكشف أصلائية الوجود وجوهانية الموجود.

بهذا المعنى تطمح هذه الدراسة لأن تكون مساهمة في تجلية التجربة الإبداعية (الروائية والشعرية) عند إبراهيم نصر الله نستعملها على النحو الآتي:

1- إبراهيم نصر الله حياته وأثاره (وشم المخيم وحلم الكتابة والكتاب):
 إبراهيم نصر الله شاعر وروائي فلسطيني الأصل ولد في عمان سنة 1954 في أقصى الظروف، ظروف اقتلاع أبويه من قريتهما البريج والشعب الفلسطيني من أرضه في عام 1948، كانت مدرسته الأولى خيمة بلا مقاعد تابعة لوكالة الغوث في مخيم الوحدات، عايش هذا المكان بكل ما فيه، فصار وشما على جسده يعلن عن ذاته في الحضور والغياب. في هذه الخيمة الدراسية كان الوضع يفرض على إبراهيم نصر الله وزملائه الطلاب الاشتراك في كتاب واحد وكانوا يحرمون في الآن نفسه من أخذه معهم إلى منازلهم، ومنذ تلك اللحظة بدأ حلم إبراهيم يكبر في امتلاك كتابه الخاص وقد كان عليه أن ينتظر طويلاً. وقد تأتي له ذلك فعلاً باطلاعه على مجموعة من الأعمال الأدبية الموازية خارج المقرر الدراسي؛ وهي أعمال أضاءت سبل نهجه الإبداعي، وأعدت بناء ذاته على نحو مغاير. ومصادفة فقد كانت هذه الإبداعات الموازية تتحدث نغماً حزيناً اعتقد معها إبراهيم نصر الله، أن العالم يعيش حالة بؤس لا تختلف عن تلك التي يعيشها هو في المخيم. إنها المعاناة التي شكلته والآثار الأشد وقعا والأكبر معنى التي تختزل حكاية أديب

¹ - محمد برادة: فضاءات روائية منشورات وزارة الثقافة، الرباط، 2003، ص: 12.

(شاعر وروائي وفنان) يركض وراء كتابة تقاوم النسيان، أديب تفتقت ملكته الإبداعية لتشيد رؤى للكون وتبني آفاق منسجمة ومنصهرة في بوتقة جعلت من الجرح العربي/ال فلسطيني ومن هموم الإنسان وقضايا الوجودية وعيا لا ينفصل فيه الجمالي عن الدلالي، والواقعي عن التخيلي، والسردي عن الشعري والإيديولوجي عن البيوطوبي لبناء هوية تعطي للوجود الفلسطيني والإنساني معنى وللتاريخ قيمة. وقد كان إبراهيم نصر الله دائما يقول عن تجربته الطفولية في المخيم، إن ثمة قيما كبرى عشتها هناك، ولفرط انصهارها فيّ أصبح الدفاع عنها جزءا أساسيا من حياتي، ولذا أصبحت هذه القيم وما تعنيه هي خط سكة الحديد لهذه الحياة وهذه الكتابة. يمكن أن أتصور نفسي ببساطة خارج تجارب كثيرة عشتها، أما تجربتي مع المخيم فلا أستطيع أن أتصور ذاتي خارجها، لأنني عند ذلك لن أكون هذا الإنسان الذي أنا عليه اليوم. فالمخيم رمز كبير لحلم إبراهيم وللحلم الفلسطيني. وبالنسبة لي، عشته في البداية حالة من البؤس واليأس وانعدام اليقين، عشته خيمة، ثم بيت صفيح وغرف أسمنت بأثمة؛ وعشته حين تحوّل اليأس في لحظة استثنائية إلى حلم، ثم عشت الحلم وهو يورق، ثم وهو يقتل ويعود ويورق من جديد. وعشت كل ما مر عليه وفيه، ولذا، فسيرة المخيم سيرتي الإنسانية المستمرة.¹ إن حياة إبراهيم نصر الله في المخيم حياة مبتلاة بالعناء بمعنى الكلمة الذي استعرناه من سقراط، وهي حياة "تروى"² والمعاناة (pâtir) لا تعني بالضرورة القسوة أو الألم، ولكن كل ما يشغل الذات الإنسانية من هموم أو تطلّعات أو آمال، أي ما يمكن الظفر به أو الإخفاق فيه. لأن من طبع التجربة الإنسانية أن تحتل الصحة أو الخطأ أو تحرز على النجاح أو تغرق في الفشل، وهذه المشاهد هي من الطبيعة "المعاناتية" لهذه التجربة.

1 - آمال عواد رضوان: الروائي إبراهيم نصر الله الثقافة العربية نفسها بحاجة إلى ثورة 28 مارس 2012

(حوار) منشور بموقع ديوان العرب على الرابط التالي

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article32310>

2. بول ريكور: "الحياة بحثا عن السرد"، ضمن كتاب الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، تحرير

ديفيد وود. ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط.1. 1999، الدار البيضاء. ص: 53/52.

معاناتها في البحث عن المعنى، أي ما يعنمها بالضبط ويصيبها في الصميم.¹ تابع إبراهيم نصر الله دراسته في مركز تدريب عمان لإعداد المعلمين وكان المكان فرصة لاطلاع الشاعر والروائي على نصوص غسان كنفاني، وسميرة عزام وهي نصوص تشعّ بالحرية والجمال. وسافر إلى السعودية وتحديدًا إلى القنفذة حيث عمل مدرسًا لمدة عامين 1976-1978، وكانت تجربته قاسية. تمخض عنها فيما بعد ولادة رواية "براري الحصى"، ثم عمل في الصحافة الأردنية من العام 1978-1996. وعمل في مؤسسة عبد الحميد شومان -دارة الفنون - مستشارًا ثقافيًا للمؤسسة، ومديرًا للنشاطات الأدبية فيها.

آثاره الشعرية: الخيول على مشارف المدينة 1980. نعمان يسترد لونه 1984. أناشيد الصباح 1984. الفتى والنهر والجنرال 1987. عواصف القلب 1989. حطب أخضر 1991. فضيحة الثعلب 1993.

الأعمال الشعرية (مجلد) 1994. شرفات الخريف 1996. كتاب الموت والموتى 1997. بسم الأم والابن 1999. مرايا الملائكة 2001. حجرة الناي 2007. لو أنني كنت مايسترو 2009. عودة الياسمين إلى أهله سالمًا: مختارات من قصائده القصيرة: 2011. أحوال الجنرال: مختارات من قصائده الملحمية الطويلة: 2011. على خيط نور.. هنا بين ليلين 2012.

آثاره الروائية: براري الحصى 1985. الأمواج البرية سردية عام 1988. عو 1990. مجرد 2 فقط 1992. طيور الحذر 1996. حارس المدينة الضائعة 1998. طفل المحلاة 2000. زيتون الشوارع 2002. أعراس أمانة 2004. تحت شمس الضحى 2004. شرفة الهذيان 2005. زمن الخيول البيضاء 2007. شرفة رجل الثلج 2009. شرفة العار 2010. قناديل ملك الجليل 2012. شرفة الهاوية 2013. وله كتب أخرى تتعلق بالنقد السينمائي، وأبحاث ودراسات في موسوعات وفي نقد القصة ونقد الشعر. وشارك في معارض تشكيلية وفوتوغرافية. وقد ترجمت بعض رواياته إلى الإنجليزية والإيطالية والدنماركية والتركية.

1 - عبد الله بريعي: السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانز جورج غادامير وبول ريكور دائرة الثقافة والإعلام الشارقة 2010 النص من تقديم محمد شوقي الزين، ص: 7.

براري الحمى إلى الإنجليزية، الإيطالية. مجرد 2 فقط إلى الإيطالية. الحوار الأخير إلى الألمانية. شرفات الخريف إلى الإيطالية. ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، والروسية، والبولندية، والتركية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية ... كما حصل على جوائز هامة عن أعماله الشعرية والروائية أهمها: جائزة القدس للثقافة والإبداع (تمنح للمرة الأولى) من لجنة القدس عاصمة دائمة للثقافة العربية . فلسطين 2012. جائزة سلطان العويس للشعر العربي 1997. جائزة تيسير سبول للرواية 1994. جائزة عرار للشعر 1991. حصل على جائزة رابطة الكتاب الأردنيين ثلاث مرات (أفضل ديوان) عن ثلاث من مجموعاته الشعرية.

2- الكتابة وإنقاذ الذاكرة

1-2 السرد والاشتغال الجمالي على التاريخ (الملهاة الفلسطينية)

الملهاة الفلسطينية هي مشروع روائي ضخم يتكون من مجموعة روايات لكل واحدة عالما الخاص والمتفرد؛ سواء من حيث مبناها الحكائي أو من حيث بناؤها الفني. وقد غطت الملهاة الفلسطينية ما يقرب 250 سنة من التاريخ الفلسطيني الحديث؛ منذ نهايات القرن السابع عشر حتى زمن ما بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية. وهذه الروايات هي: قناديل ملك الجليل – زمن الخيول البيضاء – طفل الممحاة – طيور الحذر – زيتون الشوارع – أعراس أمانة – تحت شمس الضحى. وإن العلاقة التي تجمع بين نصوص إبراهيم نصر الله السردية هذه والقارئ تمكن هذا الأخير من اكتشاف الباعث على الكتابة والمتمثل في مقاومة النسيان والرغبة في تأييد وملء البياضات التي تهدد الإنسان الفلسطيني والعربي وتشرخ علاقته بأرضه ووجوده في هذا العالم ككل، وليس غريبا أن يقف القارئ على هذه الفرضية انطلاقا من قول الكاتب: وقد صدف أن قرأت جملة لبن غوريون يتحدث فيها عن الفلسطينيين تقول: سيموت كبارهم وينسى صغارهم. وقد اعتبرت تلك الجملة أسوأ هجاء للشعب الفلسطيني، وهي تكمل تلك الجملة التي لا تقل صهيونية (لو كان الفلسطينيون شعبًا

لكان لهم أدب)¹. فالكتابة حماية للذاكرة، وضدّ للامبالاة، وبصيرة أمام الحقيقة التاريخية والوجودية والجمالية التي تختزنها نصوص إبراهيم نصر الله السردية الغنية بالإحياءات والرموز والتي تستعيد فترات مجهولة، أو شبه مجهولة في التاريخ العربي والفلسطيني. يتعلق الأمر برواية (قناديل ملك الجليل)، التي تدور أحداثها في فلسطين في القرن 18 وتحديدا في الفترة الممتدة بين 1689 و 1775. وهي فترة غنية بمنجزاتها الاستثنائية المتمثلة في إقامة أول وحدة سياسية عربية مستقلة في فلسطين، والشرق العربي. وكان فارس الرواية الحاكم التاريخي ظاهر العمر الزيداني، الذي استطاع أن يبني بلدا آمنا يحقق لأهله قيما إنسانية استثنائية، قوامها الحق والعدالة على كل مستوياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتسلم بفكرة التسامح بين كل الطوائف والأديان واحتضان الآخر، وضدا على كل توريث للسلطة. إنها رواية البحث عن الزمن الضائع. ورواية الاعتراف بسحر المقاومة التي أبداها ظاهر العمر في بناء دولته كأساس لتشييد الهوية الوطنية والعربية في أرض فلسطين. فقناديل ملك الجليل تنزع إلى كتابة روائية تمكث في المابين؛ مابين غواية التاريخ بما هو تسجيل موضوعي لأحداث ووقائع مضت، والوعي الإشكالي بالحاضر المعيش؛ الوعي بهوية الكاتب الثقافية والوجودية التي تتجلى في هوية الكتابة بما هي استعادة للتاريخ المسلوب، دون فرط حميم إليه، بعشق عناصره المفعمة بحيوية الذاكرة، حيث تلعب الوظيفة الشعرية دور الحافز للوظيفة المرجعية وتتحول بموجب ذلك الإشارات التاريخية إلى علامات سردية يضمن الوصف فيها دور الانزياح عن كل سمة تأريخية، ويحولها إلى كتابة جمالية ترشح ببلاغة التخيل لكي نتحدث عن الوجدان في التاريخ. يقول إبراهيم نصر الله: «كل ما أسعى إليه هو ألا يبتلع التاريخ النص الروائي باعتباره نصا أدبيا إنسانيا، وحتى لو كان الأمر متعلقا بشخصية مثل شخصية (ظاهر العمر) ورحلته لتأسيس دولة عربية مستقلة في فلسطين في القرن السابع عشر، فإن الأساس الذي أبنى عليه نصي هو جوهر وتشابكات الحياة والبشر مع واقعهم الإنساني، الوجودي، الجمالي، والتراثي. الرواية

1- إبراهيم نصر الله: الشرق الأوسط الأحد 09 شوال 1423 هـ 15 ديسمبر 2002 العدد 8783.

هنا لا تخون التاريخ الفعلي للأحداث، ولكنها قراءتي الخاصة لتلك الأحداث. ومهما كانت الرواية تاريخية، أفضل أن يكون التاريخ فيها أشبه بالسكر في كوب الشاي، نتذوقه، ولا نراه؛ لأن الأمر، حين يسير بهذا الاتجاه تضمن ألا يتحول نصك الأدبي إلى نص تاريخي فتفقد بذلك النصين.¹

فالسردي التخيلي هو المكمل للسردي التاريخي وحليفه في المجهود الإنساني الكلي قصد التأمل في التجربة الزمنية وما تنطوي عليه من أسرار « فالقصص التاريخية والقصص الخيالية متشابهة. ومهما كانت الفروق بين مضامينها المباشرة (وهما الأحداث الواقعية والأحداث المتخيلة) يظلّ مضمونهما الأخير واحدا: ألا وهو بنية الزمن الإنساني. فصبيغتهما المشتركة، أي السردي، هو وظيفة هذا المضمون المشترك.»² كما أن خطاب التاريخ أو السردي التاريخي لا يمكن التعامل معه إلا بطريقة غير مباشرة، «لأن اللغة التاريخية هي، بالضرورة، لغة غامضة».³ ومن هنا تفرض القرابة بين التاريخ والسردي التخيلي نفسها، «فإعادة تشييد الماضي، كما أكد على ذلك كولنكوود، هو من عمل المخيلة. والمؤرخ أيضا، بحكم العلائق المشار إليها أنفا بين التاريخ والحكي، يشخص حبات تسمح لها بالوثائق أو تمنعها إلا أنها لا تشتمل عليها قط، بهذا المعنى، فإن التاريخ يلائم بين التماسك السردي والتطابق مع الوثائق. وهذه الصلة المعقدة تطبع الوضع الاعتباري للتاريخ بوصفه تأويلا».⁴ فهناك علاقة بين التخيلي والتاريخي، وبفضل هذه العلاقة المركبة بين المرجع غير المباشر للماضي وبين المرجع المنتج للتخييل، لا تكفّ التجربة الإنسانية عن تشخيص نفسها وتمثلها من جديد في بعدها الزمني العميق، وهي العلاقة نفسها التي أشار إليها هايدن وايت في قوله: «إن

1 - حوار مع إبراهيم نصر الله لرواية تحيي كاتهما من خطر الأنظمة المستبدة!، منشور في الموقع الآتي:

<http://www.alquds.co.uk/?p=44149>

2 . هايدن (وايت) "ميثافيزيقا السردية"، ضمن الوجود والزمان والسردي فلسفة بول ريكور مرجع سابق، ص: 203.

3. Paul (Ricoeur): Histoire et Vérité, Coll; Esprit; Paris, Seuil, 1955, Page: 30.

4. Paul (Ricoeur): Du Texte à L'action; Essais d'herméneutique; II. Collection Esprit Seuil; 1986 ; Page: 18.

الأحداث التاريخية تمتلك البنية نفسها التي يمتلكها الخطاب السردى. وطبيعتها السردية هي التي تميّز الأحداث التاريخية عن الأحداث الطبيعية. ولأن الأحداث التاريخية تمتلك بنية سردية، فللمؤرخين الحق في اعتبار القصص تمثيلات صادقة على هذه الأحداث، ومعاملة هذه التمثيلات بوصفها تفسيرات لها»¹. فالتاريخ في الرواية ينسج مع التخيل علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، وكثيرًا ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية، والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقربها منه إلا فعل الحكى ويتبدى هذا الفعل في أرق صورته في العلاقة التي ينسجها السرد مع الحياة. لذلك فالملمهة الفلسطينية، تطمح إلى بلورة تخيل يسمح للذاكرة بعدم نسيان الماضي، أي لا تجعل من النسيان محوًا للذاكرة. إنَّ التخيل والذاكرة يتجاوران ويتواشجان بانفتاحهما على أزمنة وفضاءات ومعارف متباينة في مسألة المستقبل- لأن الملمهة مشروع غير مكتمل مستمر استمرار حالة فلسطين واستمرار الكتابة- سواء لجهة تفاعل النص مع ذاكرة المتلقي، أو لجهة محاورة المبدع لنصوص وأعمال مؤثرة، وذلك لإبراز دلالات مهمة ضمن سياق زمني مختلف بإعادة صوغها على نحو آخر، وإن كانت تنتهي إلى السلالة التخيلية ذاتها. إن هذه الاستعادة للتاريخي لا تتم إلا عبر تقنيات الكتابة الروائية الحدائية، التي تمتع من أسلوب التقطيع الحدئي والتركيبي المشهدي وكسر نمطية التتابع الزمني. فبواسطة السرد نتحدث عن تاريخية الفرد، والهوية السردية تتجاوز (الماهو) لتصبح ذات الكائن في تغيراته وتحولاته داخل تماسك الحياة نفسها. فالفرد يبني هويته بواسطة سرده للأحداث وسيصبح هذا السرد بالنسبة للفرد أو الجماعة تاريخًا مجددًا يعطي للحياة تماسكها. لقد سعى إبراهيم نصر الله إلى تشييد رمزي للهوية الفلسطينية الممتدة جذورها في عمق التاريخ؛ فالمتخيل وحده قادر على التحايل على الزمن الفيزيقي وتحويله إلى كتل وكميات يقوم السارد ببنائها وفق ما تمليه عليه أهواؤه ورغباته. فالهوية إذن، من هذه الزاوية تأخذ مشروعيتها التاريخية وأبعادها المرجعية ضمن عوالم المتخيل حيث تكتسب

1. هايدن (وايت) "ميتافيزيقا السردية"، مرجع مذکور، ص: 189.

أبعادها الرمزية، وهي الأبعاد التي بها تعيش ومن خلالها تتخلص من الزمن، وبها تقاوم وتحمي الذات من الذوبان أيضا.

بناء على ذلك، فأهمية الرواية لا تتبدى في الإخبار عن أحداث ووقائع تاريخية مضت وتحفظ ملامحها ووثائق التاريخ والشهادات والتسجيلات، وإنما في استقصاء ومساءلة بياضاتها المضمرة التي لم تتمكن وثائق التاريخ من تكليمها واستنطاق ما هو كامن خلفها، فهي لم تكن كافية لتشكيل صورة عن هذه الشخصية التاريخية العظيمة، فإبراهيم نصر الله وهو يكتب عن شخصية ظاهر العمر الزيداني، لا يقدمه نموذجا إنسانيا متعاليا، الأمر الذي يقود إلى تحنيطه ويفقده أهميته السردية، وإنما يشخص مزياه فيقدمه في بعض المقاطع السردية إنسانا عارفا ذكيا وتحديدا في الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ الشويكي¹، وتارة إنسانيا عاديا وأخرى داهية سياسية وهذا ما يحقق لروايته نفسا دراميا حيا قوامه تنوع في السرد والشخصيات والرؤية والأسلوب. ويفتح صدره للذاكرة الشعبية من خلال أغاني النساء² وطقوس الفتيات (خميس البنات)³ وأمثال هذه الذاكرة وأساطيرها ومحكياتها خاصة ما له علاقة بشخصية ظاهر العمر الزيداني والهالة التي تحيط به في وجدان أتباعه. وهذه الاستراتيجية متعددة المسالك تقوي مبدأ الإحالة المرجعية وتجعل الرواية مشدودة إلى فضاءات جغرافية بعينها خاصة تحبيك مسألة تحرير الأرض وانتزاع الاستقلال وإقامة الدولة العربية في فلسطين، وتحدي أكبر دولة في العالم

1 - قناديل ملك الجليل رواية (الملهاة الفلسطينية) الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان - مكتبة كل شيء، 2012 ص: 55.

2- من ذلك مثلا ما ورد في قناديل ملك الجليل ص 162 وص 78.

خي يا ظاهر يا تاجي وراسي/ يا سيف الفضة مشعشع بالماس/ في يوم وصولك ردت
أنفاسي/ وخليت الشمس تطلع علينا/ خي يا ظاهر يا خالي وعي/ يا عرق الذهب
شعشع في دمي/ مين غيرك أهلي... ويفرج هي/ م ا حلّ طبرية يوم التقينا

3 - هو في الأصل طقس سنوي تقوم به الفتيات غير المتزوجات على شاطئ البحيرة، اعتقادا منهن أن ذلك يزيد من فرص الزواج حين يغسلن شعرهن بالماء المنجم (قناديل ملك الجليل ص 112).

أنداك (الدولة العثمانية) وسطوتها المنبسطة على ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وإفريقيا، «لقد بلغني، أخواتي وإخوتي، أن هناك من يقول: ما يحدث لنا سببه أن ظاهر لا يريد أن يكون أقل من بطل! إن أسوأ فكرة خطرت للإنسان: أن يكون بطالا في حرب، وهناك ألف مكان آخر يمكن أن يكون فيها بطالا حقيقيا. ولكن هذه الحرب فرضت علينا، ولم نخضها لكي نصبح أبطالاً، بل خضناها لكي نكون بشرا، كرمهم سبحانه وتعالى حين قال: (وقد كررنا بني آدم) صدق الله العظيم. نحن لا نريد أكثر من أن نكون بشرا. أما ما أحلم به، فهو أن تكونوا أبطالاً كلكم بعد هذا الحصار. فالبطولة في أن تبنوا بلادكم بأمان، وان تزرعوا أشجاركم بأمان، وألا تخافوا على أطفالكم، لأنهم محاطون بالأمان»¹. وقد أملى هذا على الروائي سبرا عميقا للمكان، واستقصاء مليا في بنياته السوسيولوجية والثقافية وهي استراتيجية تجعل السارد أقرب إلى الأنثروبولوجي وعالم الاجتماع والجغرافي، خاصة فيما يتصل بإدراك العلاقة بين المكان والإنسان والثقافة. وضمن السياق ذاته تسعى الرواية إلى تصريف مجموعة من القيم ظلت الغائب الأكبر في زمننا الراهن من قبيل الإيمان بالاختلاف والديمقراطية ومدنية السلطة... وعلى هذا الأساس، فالبنية الروائية لقناديل ملك الجليل هي تعبير عن نص روائي كبير يتبدى ذلك في إشارة ميشيل بوتور حينما اعتبر الرواية نوعا من البحث² والتأملي والتأمل في ذاكرة الذات والجماعة؛ وهو ما نقرؤه في رواية (زمن الخيول البيضاء)، والتي سعى فيها إبراهيم نصر الله إلى تقديم ذاكرة جديدة مشتقة من الذاكرة الجماعية، فيها روحها ولكنها لا تشبهها، أو تختلف عنها كثيرا، وهو بهذا الإنجاز أراد أن يفاجئ من يعرف فلسطين بأنه لم يكن يعرفها تماما. لقد أبحرت هذه الرواية مسافة أبعد في التاريخ، لأنها ذهبت إلى نهايات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين؛ 125 عاما من تاريخ الشعب الفلسطيني حيكها إبراهيم نصر الله ضمن ثلاثة

1 - قناديل ملك الجليل رواية (الملهة الفلسطينية) مصدر سابق، ص: 141.

2 - بيير شارتييه: مدخل إلى نظريات الرواية، ترجمة عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2001، ص: 192.

محكيات: محكي الريح ومحكي التراب ومحكي البشر.

ترصد الرواية بدايات خروج الأتراك العثمانيين المستبدين من فلسطين، وكيف اقتلعهم الريح الإنجليزي وتأثيث المكان عبر الوعد المشؤوم للمحتل الإسرائيلي. فهم من كل حذب ينسلون، ويتسللون عبر كل ثقب يوصل إلى فلسطين حتى أصبحوا في قلبها، وذلك ضمن برنامج سردي تحكمه حالات وتحولات؛ توفق إبراهيم نصر الله في تصوير مقاطعه؛ حيث حياة الفلسطيني التي كانت هادئة ثم اغتصبت أرضه وحرق زرعه أمام عينه وقتل ولده بين يديه... بدأت ألوان المشهد هادئة حاملة متهادية بين جمال أرض الزيتون والقمح ورشاقة الخيول وأصالتها وفروسية الرجال وحياء الفتيات وجمالهن وشرفهن، يضاف إليها رمزية القيم العليا والأصيلة التي تسكن روح أرض الهادية وأهلها، والفرس في الرواية تراها تغضب وتفضح وتبكي، وتضحك، بل وتعشق، وتأخذ مكانة لا تضاهيها مكانة عند أصحابها. تقدم نحوه، ارتفعت قائمتا فرس خالد، أطلقت صهيلا غاضبا، ثم راحت قائمتها تتجهان إلى الجسد المدعور (...). فضحتك الأصيلة. قال له¹ كما أن الشيء الوحيد الذي يدخل في نطاق المحرمات هو إهانة المرأة أو الفرس «في بيت الحاج محمود وقبله بيت أبيه الحاج عمر كان الشيء الوحيد الذي لا يقبل أن يقع: هو إهانة المرأة أو إهانة فرس»² ثم أخذت الألوان في محكي البشر، زمن العصابات اليهودية والمستوطنات والنكبة في التدرج إلى القتامة والغنج، فأصبحنا نتحدث عن الجبن والخيانة والسلب والنهب والموت والتقتيل... حيث يخضع الآخر في الرواية (العدو الصهيوني) للتفكيك والمساءلة عبر تمثيل ما اقترفه من جرائم في حق الشعوب الأصلانية. وبهذا المعنى يأخذ السرد الروائي شكل المقاومة الثقافية التي تعيد قراءة الماضي. والرواية تستق انطلاقا من كل هذا هوية جديدة يبرز فيها المتخيل باعتباره أفقا يعطي للذات والجماعة كافة التحققات، وكلها معاني تتذوق طعمها بأصدق

1- إبراهيم نصر الله: زمن الخيول البيضاء، (الملمة الفلسطينية) الدار العربية للعلوم ناشرون -

منشورات الاختلاف الطبعة الرابعة كانون الأول - 2009، ص 35.

2- المصدر السابق، ص 10.

الأوصاف، وعبر حبكة قصصية تعدّ طريقة في إعطاء الذات الإنسانية المفككة باستمرار شكلا محققا بصورة ملائمة لكافة تجاربها؛ «إن معنى الحياة الإنسانية الواقعية، سواء أكانت للأفراد أم للجماعات، هو معنى الحكيات...والحياة ذات المعنى هي الحياة التي تتوق إلى تماسك قصة ذات حبكة. ويتصور الفاعلون التاريخيون حياتهم، وهم يتطلعون إلى الأمام، على أنها قصص ذات حيكات»؛¹ إنها، وفق هذا التصور، تشكيل وصياغة لتجربتنا في هذه الحياة، كما أن «كل تصوير سردي يتضمّن بالضرورة إعادة تشكيل لتجربتنا الزمنية»². في هذا الإطار يتجه السرد في زمن الخيول البيضاء نحو استعادة هذا التخيل انطلاقا من وعي ثقافي يسلم بضرورة رسم تضاريس الشخص والمناخات وتواريخها المؤسسة لهويتها ووجودها الاجتماعي والنفسي. أضف إلى ذلك أيضا الوعي بضرورة تعدد اللغات بعيدا عن هيمنة الصوت الواحد. كما استند إبراهيم نصر الله في روايته على شهادات لأشخاص حقيقيين أخرجوا من ديارهم وأرضهم، بعد أن شهدوا مقتل أهلهم وذوئهم. اعتمد على كثير من الأحداث الحقيقية، بل ومنها ما حدث بالفعل في قريته هو. ويعد هذا ملمحا جماليا، يظهر أن أساس البناء الروائي هو جوهر وتشابكات الحياة والبشر مع واقعهم الإنساني، الوجودي، الجمالي، والتراثي. وإن إحدى الفرضيات التي تسعى زمن الخيول البيضاء إلى تشييدها تتبدى في الحرص على وجود علاقة جوهرية بين فعالية سرد قصة ما وبين الطبيعة الزمنية للتجربة الإنسانية، هذه العلاقة ليست عرضية بل تمثل شكلا ثقافيا ضروريا، بحيث يصير الزمن إنسانيا، فيصاغ بصيغة سردية، ويكتنز السرد بمعناه الكامل، حيث يصبح شرطا أساسيا للوجود الزمني. لذلك سنؤكد ما قاله بول ريكور بأن فرضية «القصص تروى ولا تعاش، والحياة تعاش ولا تروى»³ هي مجرد مغالطة، لأن عملية بناء الحياة في السرد شيء ممكن. كما «أن الطابع المشترك للتجربة الإنسانية المميز

1. هايدن وايت "ميتافيزيقا السردية" مرجع مذكور، ص: 192/193.

2. Paul Ricoeur: Temps et Récit I; L'intrigue et le récit historique; Coll L'ordre Philosophique Seuil; Paris1983; Page:7.

3. Paul Ricoeur: Du Texte à L'action; op.cit ; Page: 15.

والمتمفصل والموضح من لدن فعل الحكيم في جميع أشكاله، إنما هو الطابع الزمني. فكل ما نحكيه يحدث في الزمن، ويستغرق زمنا ويجري زمنيا. وما يحدث في الزمن يمكن أن يحكى. ويمكن لأي سيرورة زمنية ألا يُعترف لها بهذه الصفة إلا بقدر ما هي قابلة للحكي بطريقة أو بأخرى¹. فهناك ارتباط دالّ بين الوظيفة السردية والتجربة الإنسانية؛ ووفق هذه الأطروحة «فإن الزمن يصير إنسانيا في الحدود فقط التي يتمفصل فيها بطريقة سردية»². إن السرد من هذا المنظور يمنح الأشياء أبعادا تزيحها عن دوائر النفعية والمباشرة إلى ما يشكّل عمقا دلاليا وأداة حاسمة في تنظيم التجربة الإنسانية: «فبطلّ بنية الحكايات التي تحكي ما حدث في "ذلك الزمن" يتحدد اتجاه تجربتنا، أي يصبح لها امتداد زمنيّ، له بداية وله نهاية، ويشحن حاضرا بذاكرة وأمل»³. فالذاكرة في النهاية حسب إبراهيم نصر الله، «هي كل شيء؛ هي نحن، هي التجربة التي عشتها أنت والتي عاشها غيرك، والكتاب الذي كتبتَه أنت أو كتبه غيرك، بل هي الشيء الذي لم تحققه بعد وتحلم به ويحلم بغيره غيرك. ولذلك هي الكل الذي لا يقسم على واحد فقط هو أنت، أو ذاتك؛ إنه حلول كل شيء فيك. وإذا لم تخرج للقاء هذه الأشياء ستبقى ناقصا، وللأسف، نحن لا نستطيع أن نلم بكل شيء ضمن قدرتنا البشرية. الذاكرة تعني لي أن باستطاعتي أن أكتب ألف صفحة عن شاب عاش الحياة فعلا، ولا أستطيع الكتابة أكثر من عشر ورقات عن شخص بلغ مئة عام بحياته الخاوية، إنها المنسوب الحياتي، مثل منسوب النهر والبحيرة والبحر والبر»⁴. فالذاكرة أجبرت إبراهيم نصر الله على الكتابة عن طفل ولد في الشتات وعاش في المخيمات يعلم الطيور الحذر لئلا تقع في الفخ مرتين.

. 1 Paul Ricœur: Du Texte à L'action; op.cit ; Page:12.

. 2 Paul Ricœur: Temps et récit I ; op.cit Page: 7.

. 3 Paul Ricœur: De l'interprétation ; op.cit; Page:49.

4 - إبراهيم نصر الله: نحن مصابون بلعنات المكان، التاريخ والصور الجاهزة. حواز: أمانة الربيع مجلة نزوى العدد 67. ص: 155 / 145.

سمعت أنك شاطر في الصيد. قال الأستاذ خالد.
هز الصغير رأسه موافقا، لكنه لم يكن مطمئنا حتى الآن.
أصطادها وأطيرها: قال بوجل.
لماذا تصطادها ما دمت تطيرها؟
لأعلمها الحذر.
تعلمها الحذر؟؟
الحذر حتى تصبح حذرة
لم يفهم الأستاذ ما قاله التلميذ، تذكر أولاد الصف الاثني وخمسين.
لماذا لا تساعدني على تعليم الأولاد ما دمت قادرا على تعليم العصافير؟؟
هذه مسألة أخرى. قال الصغير.
كيف؟؟
لأن العصافير أشطر من الأولاد.
أشطر من الأولاد؟؟!
كثيرا
وكيف عرفت؟
العصفور يتعلم من انطباق الفخ على رقبتة من المرة الأولى، أو الثانية، لكن الأولاد لا يتعلمون بعد الضرب بالخيزران على أيديهم وأرجلهم، ولا يتعلمون من الضرب على رقابهم ووجوههم.
والعصافير؟؟
العصافير تتعلم أستاذ."

إن عالم الطيور، ما هو إلا رمز للحرية التي يتوق إليها الإنسان الفلسطيني وهو ما عبر عنه فيصل دراج، «إذ يقع الفلسطيني في القفص ويتمرد عليه لكنه ينتهي إلى قفص آخر وكان

الفلسطيني لا يعيش طيرانه إلا لحظة الانتقال بين قفصين.¹ فمحكي الرواية يصور الصراع بين الحرية والعبودية في رواية «طيور الحذر مثلا، ليس في ذاكرتنا كأطفال إلا اصطيد الطيور والتهامها، وهذا هو الأمر الشائع الذي يعرفه الجميع، ولذا طرحنا الرواية شيئا مغايرا، فالطفل الذي يصطاد الطيور يقوم بتعليمها الحذر حتى لا تقع في فخاخ الأولاد الآخرين، مع أن الطفل يستند إلى خبرة جماعية في الصيد يعرفها الجميع، أما اختلافه عنهم فهو تعليمها الحذر، وحين حدث هذا انقلبت الذاكرة وغدت ذاكرة فنية جديدة أوسع بدالاتها وفكرتها.² ولا شك أن الصلة بين السرد والاستذكار، جعلت التركيب السردى في هذه الرواية من الناحية الفنية، قائما على تهجين الكثير من اللغات في داخلها، فهي تداخل بين العامي والفصيح في سياقات حوارية ومقامات تلفظية متعددة ويعطي للوظيفة السردية بعدها الوظيفي والتداولي ويوفر لها الإمكانيات للانفتاح على المرجعيات الثقافية المتنوعة مثلا:³

شوبدك يا حبة عيني؟

ردت حنون: إبرة بابور يا خالتي

وتقوم بتقويض اللغات الأمرة التي تفكر داخل النسق المؤسساتي. وبهذا المعنى لا يمكن للسرد أن يكون ناجزا إلا عندما يوفر لقارئه إمكانيات متعددة للفهم والمعرفة بلغة ميلان كونديرا التي تؤكد على أن الرواية لا يمكنها أن تكون خطابا معرفيا إلا باستنطاقها الوجود الغامض غموضا رهيبا وتنجز ذلك التشخيص المجتمعي المغيب بفعل سطوة التقاليد

1 - د. محمد صابر عبيد وآخرون: الكون الروائي . قراءة في الملحمة الروائية (الملهاة الفلسطينية).

المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 2006م. ص27.

2 - بيانكا ماضية مقابلة مع الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله موقع رابطة أدباء الشام: الشعر قصة حب طويلة والرواية زواج راسخ والحرية لا يمكن اختصارها بكلمة. للمزيد أنظر الرابط

<http://www.odabasham.net/show.php?sid=15995>

3 إبراهيم نصر الله: طيور الحذر، (الملهاة الفلسطينية) الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات

الاختلاف الطبعة الرابعة 2009، ص:9.

والمواضع الاجتماعية والخطابات الأمرة التي تحاصر الذات وتحد من قدرتها على الفعل.¹ ولعل هذا هو هاجس مشروع الشرفات: (شرفة الهذيان وشرفة رجل الثلج وشرفة العار وشرفة الهاوية) فالروايات تتأمل وتحكي بعمق ما حدث ويحدث في حاضر فلسطين والراهن العربي؛ حيث الاستبداد والاستملاك، في كل صوره السياسية والاجتماعية والثقافية ولا ينتج سوى ضياع مزيد من الذوات والأوطان. وهي بالمقابل رحلة البحث عن الحرية وتكسير كل المتصلات والسلط القيمة التي تقدم نفسها باعتبارها مطلقا.

2-2 السرد، إعادة توطين للهوية المفتتة (الشرفات)

إن وجودنا لا يمكن أن ينفصل عن المعنى الذي نعطيه لأنفسنا. فعبر حكينا لقصصنا الخاصة نعطي لأنفسنا هوية. فأن نفهم الكائن الذي هو نحن على نحو جوهري، أو أن نسعى لفهم الحوادث الإنسانية وتعليلها، كل هذا لا يتم إلا من خلال حكي قصة. فالحياة سلسلة من المتواليات السردية أو كما قال ريكور تروى الحياة ويعاش السرد، بهذا المعنى تنخرط نصوص إبراهيم نصر الله في تمثيل هويات الشخصيات المفتتة. فالشخصيات في الشرفات تفتقد إلى نقط ارتكاز تسندها ويجعلها تستشعر نوعا من الإحساس بالانتماء في واقعها، فهي تعيش ضياعا وانشطارا ما يؤكد أنها تعيش قيم مجتمعات ما بعد الحداثة بعيدا عن كل ثبات هوياتي. فالهوية هنا «تصبح احتفالا متنقلا، تتشكل وتتحول بصورة دائمة بالعلاقة مع الطرق التي نتمثل أو نخاطب فيها النظم الثقافية التي تحيط بنا.»² وهي حالة رشيد النمر في رواية شرفة الهذيان³ في طريقة تفكيره المتشظية وفي بحثه المرير عن الحرية والانعقاد من القيود لكن البطل سرعان ما يكتشف زيف أحلامه، فقد أصبح مسؤولا عن التعطيم والمراوغة والتستر على الحقائق وإعطاء معلومات خادعة، ولإضفاء

1 - ميلان كونديرا: فن الرواية ترجمة بدرالدين عرودي المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 2001 ص: 9.

2 - ستيوارت هول: حول الهوية الثقافية، ترجمة بول طبر، مجلة إضافات العدد الثاني ربيع 2008 الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ص: 138.

3 - إبراهيم نصر الله شرفة الهذيان رواية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط.1. بيروت 2005.

الشرعية على السلطة في نزوعها التحكيمي وخطابها الأمر «فُنْفَاجاً بأنّ رشيد النمر مع المدة، يصبح مُنْقَذا لرغبات المسؤولين عنه فيشتري القفص ليضع فيه العصافير ليُسَلِّمها للمسؤولين، ولم يعد جمالُ العصفور وصوته العذب ما يشدّ رشيد النمر وإنما الرغبة في إثبات الإخلاص والولاء للسيد الحاكم . وهكذا يتقابل ويتقاطع عملُ رشيد النمر في مركز الإعلام ومهمته الملقاة عليه بمنع الزائرين من تعدي الحدود المسموح بها مع قيامه بتجميع العصافير والمساعدة في قتلها أو تسليمها للسلطات. وبهذا تخلى عن حلمه وأمله وما عاش عمره ينتظر تحقيقه. لكن تخلى رشيد النمر عن اقتناء العصفور، حلمه الذي راوده لسنوات، لا يعني استحالة تحقيق الحلم عند الغير. فقد فوجئ رشيد ذات صباح بسماع غناء هائل لم يسمع مثله من قبل، كان غناء جميلاً وصافياً. راح يركض للشرفة، ووجد نفسه وجهاً لوجه مع عصفور جميل، وهكذا بقيت الرجال. ولكن ما أقلقه أن العصفور حطّ على شرفته هو»¹ وهي رواية كان العبث فيها سيد الأفق. حيث «عبثية وجود الإنسان العربي في هذا الزمن العربي الذليل. فهذا الإنسان المسّى عربياً، وجوده يتمحور في عدم وجوده بالنسبة للحاكم ورجالاته، ولغته العربية الغنيّة لم يحفظ منها غير كلمتين الرعب والجحيم اللتين تُصوّران واقعه الحياتي. وإبراهيم نصر الله يُلخّص لنا بإيجاز وذكاء وجدّة وقسوة وصراحة عالية يريد أن تصل إلى كلّ مكان وإنسان في العالم، الصورة المثلى للإنسان العربي كما يُحددها له الحاكم. فهذا الحاكم يخاطب الإنسان العربي راسماً له خطوط الحيز المسموح له التواجد فيها والتحرك ضمنها والتصرف كما يحلو له»² وفنياً فقد كسرت الرواية مقولة الصفاء الأجناسي وكانت مناسبة لتجاور العديد من الفنون كالمسرح والشعر والتشكيل وكتابة السيناريو وأخبار الصحفي... إن «رواية "شرفة الهذيان" التي يضيع قارئها ما بين شدّة واقعيّتها من جهة وسرياليّتها والمشاهد الخيالية التي تتوالى،

1 - المصدر السابق، ص: 186.

2 - د. نبيه القاسم: إبراهيم نصر الله في "شرفة الهذيان" والبحث عن حرية الإنسان العربي المفقودة في

هذا العالم العربي <http://www.nabih-alkasem.com/nasrallah2.htm>

هي تجربة جديدة ومتطورة في إبداع إبراهيم نصر الله. وبالإضافة إلى لغته الجميلة وسرده الأخاذ وحواراته العميقة والواضحة في قصديتها فقد خاض تجربة جديدة في كتابة الرواية، بعيدا عن البناء التقليدي الذي عرفناه في الرواية منذ سنوات، فمن حيث الشكل لا نجد السرد التقليدي ولا الحبكة الروائية، واستعاض عنها بالخبر الصحفي والإعلان الرسمي والدعائي وبالصورة الفوتوغرافية والمأخوذة من الإنترنت. وهو يدرك كم لهذه الإضافات من تأثير وكم بإمكانها أن تختصر الكلام الكثير. فصورة الرئيس الأمريكي ومن ثم صورة معتقل غوانتانامو والمعتقلين فيه وصورة المعتقلين أثناء تعذيبهم وصورة عشرات القتلى نتيجة للحرب القذرة في العراق وصورة الطفل الفلسطيني محمد الدرة لحظات قتله كلها كافية أن تقول لنا ما تعجز عنه آلاف الكلمات. كما أن تكرار صور العصافير المعرضة للذبح والقتل، ورغم ذلك تبقى مصرّة على الحياة والطيران والوجود تقول لنا الكثير، أن الأمل باق وأن الغد لحاملي مشاعل الحرية وأصحاب الأحلام والآمال الكبيرة.¹ كما أن التفتت الهوياتي بين أن تكون الشخصية هي ولا هي في الوقت نفسه، لازم أيضا شخصية الطالبة الجامعية منار في رواية شرفة العار² التي تعرضت للاغتصاب وبدلاً من أن يداوي المجتمع الصغير والكبير جراحها، ويقف إلى جانبها ويواسيها، عمل على إدانتها. كما لازم شخصيات أخرى كالأخ أمين ويونس وعصام وغيرها من شخصيات الرواية. وتأملت شرفة الهاوية³ ما أطلق عليه عربياً التحولات الديمقراطية حتى اندلاع الثورات العربية، والتغيرات التي طرأت على حياتنا السياسية بين نهاية الثمانينات والثورات العربية، ومكر الأنظمة العربية، وقدرتها على خداع شعوبها. ليست الرواية تأريخاً بالطبع، ولكنها تتناول روح هذه التغيرات بانعكاساتها على الإنسان العربي من خلال عدة فئات مجتمعية: رجل السلطة (الوزير

1 - د. نبيه القاسم: إبراهيم نصر الله في "شرفة الهذيان" مرجع مذکور.

2 - إبراهيم نصر الله شرفة العار- رواية - الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف ط.1،، بيروت 2010.

3 - إبراهيم نصر الله شرفة الهاوية- رواية - الدار العربية للعلوم ناشرون، ط.1،، بيروت 2013.

سلمان)، والنخبة المثقفة (الأستاذ الجامعي كريم) والشخصية القانونية (المحامية ديانا زوجة الوزير) والشباب الذين يشقون طريقهم في الحياة بصعوبة اليوم، فالقضايا الأساسية التي تناولتها الرواية هي: الفساد السياسي، والإداري والمالي والخيانة واستغلال ضعف الناس وحاجة الآخرين ثم التحرش بالمرأة في الأوساط الجامعية بالذات (الهوس الجنسي بين الدكتور كريم والطالبة نهى)، وعدم القدرة على حماية الذات، فالرواية حاولت تصريف صورة المثقف الذي أدمجته السلطة في هويتها، فأصبح مجرد صورة تزين الواجهة السياسية وبنوراما لديمقراطية مزيفة خلفها تحاك الدسائس ضد أحلام ناس بسطاء ومستقبلها وهو عاجز أمام كل ما يحدث باسمه وبأمر من السلطة التي جرت له للصمت المطبق على قلبه وشفاهه حتى صار أثراً من التاريخ المنتهي. ومن الناحية الفنية تقوم الرواية على أبعاد حوارية قائمة على المفارقة بين ما ينتهي للذات وما تمارسه، وكاشفة لواقع منظومة اجتماعية وسياسية وثقافية وحقوقية هشّ وشقي، واقع ترسمه المظاهر البراقة لشخصيات هشة داخل شرائح اجتماعية تعيش على توزيع الوهم وتحويل الذكريات الخصبية والأحلام إلى سلعة تباع لإرواء ظمأ الكوابيس والانهيارات والانكسارات حيث يقدم فيها نصر الله أسلوبية سردية تتكى على أصوات مركبة بطريقة تدعو القارئ إلى المساهمة في إعادة بناء النص داخل الواقع وحراكه.

إن أعمال إبراهيم نصر الله الروائية، لا تكفّ عن مجابهة ومساءلة الأنساق المبتذلة، إذ تسعى لتحطيمها ما يجعلنا نستشعر أن هناك قوة حقيقة تتم ممارستها بواسطتها السرد وأن هذه القوة لها آثارها الفعلية بوصفها ممارسة إبداعية تتكامل مع الفعل الثقافي الباني لكيثونة المجتمع، ويتبدى هذا بصورة واضحة، في الأعمال السردية التي تستعيد التاريخ وفق رؤية جديدة، وهي بذلك تؤسس لفهم مغاير لهذا التاريخ بإضاءة كل الحقائق التي لحقها التشويه والترذيف. لهذا السبب اكتسبت أعمال إبراهيم نصر الله السردية في أبعادها الوجودية قوة خاصة أقدرتها على مجابهة كل السلط الفعلية والرمزية في نزوعها التحكيمي ومكنتها من اقتراح بديل بروميثوسي يقوض نسق السلطة ويشكك في نواياها، ويسعى إلى نقد خطاياها وإفشال رهاناتها، كما يأبى الاستكانة ويتلبس بوظيفة إنقاذية للإنسان في

صراعه الأبدى مع أقدار لا تحترم إرادته؛ «فما غيبته سردية السلطة أو عملت على تشويهه أو تحريفه، يستعاد عبر سردية مغايرة تؤكد الحاجة إلى الرواية في التعبير عن الوجود. وكما تتوجه هذه السردية المضادة إلى الآخر، بهدف مقاومته واستعادة ما عمل على تغييره أو تشويهه كالتاريخ والأمكنة، تتوجه كذلك إلى داخل حدود الذات من أجل تفكيك بني الهيمنة وأنساقها وآثارها على الفرد والمجتمع.»¹ إن مساهمة هذه السردية تدخل في إطار العمل على تحقيق ما دعاه علي حرب تحويل الفضاء الجغرافي إلى أرض لانزراع الأفكار الخصبة أو لولادة المفاهيم الخارقة.² إن التخيل، من هذا المنظور، قوة مقاومة لكل نزعة إكراهية، سواء في بعدها المادي أو الرمزي، لأنه لا ينشأ عادة في مناطق الوعي المنضبط للقوانين والسلط، بل يتخلق، كما تتصور فيرجينيا وولف، في الطبقات القصية اللاواعية من شخصية الكاتب، وبأقصى سرعة. والنص السردى عند إبراهيم نصر الله ينطوي على أفقين: أفق التجربة وهو أفق يتجه نحو الماضي ولا بد أن يكتسب صياغة تصويرية معينة، تنقل تتابع الأحداث إلى نظام زمني فعلي، وأفق التوقع وهو الأفق المستقبلي الذي يعيد به النص السردى، إنتاج أحلامه وتصوراته وخيالاته. ويوكل للمتلقي أو القارئ مهمة تأويلها. ولعل هذا الملمح هو ما يعطي لأعمال إبراهيم نصر الله الروائية فرادتها فهي دائما منفتحة على التجريب قادرة على امتلاك وتملك سمات اللحظة المعاصرة من خلال تجاوزها لاغترابات الوعي الجمالي والوعي التاريخي والوعي اللغوي وانفتاحها على آفاق تفاعلية ودينامية بين أقانيم الذات المتشعبة، وتمظهرات الآخر المتقلبة من حولها، سواء كان هذا الآخر هو اللغة، بإرغاماتها المحايثة أو المتجلية، أو كان هو التراث المدوّن أو الشفهي بكافة سلطه الرمزية والمادية، أو كان هو المجتمع بكل توقعاته وتناقضاته وأفاقه المخيبة، أو العالم برمته بتياراته الجارفة، من دون التفريط في بعض الثوابت الكبرى المتعارف عليها

1 - د. إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2012، ص: 294.

2 - علي حرب: حديث الهيايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، ط.1. المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء 2000، ص: 26.

كونيا، في كتابة الرواية، وهو ما يدعى بالروائية. ونود كذلك أن نثير الانتباه إلى مسألة أساسية تتعلق بالكون الروائي عند إبراهيم نصر الله وتحديدًا فيما يتصل بالشخصيات. فالشخصية عنده لا يتم النظر إليها إلا باعتبارها بناء وتسنينًا ثقافياً تنتج مجموعة من السلوكات والقيم وتؤدي مجموعة من الوظائف والأدوار المثبتة داخل الموسوعة الثقافية والمدركة من خلال سنن التعرف بلغة أمبرطو إيكو، إنها بلغة فيليب هامون كذلك شخصيات ذات حمولة مرجعية¹ سواء كانت مرجعية تاريخية أو اجتماعية أو ثقافية فشخصية ظاهر العمر الزيداني في قناديل ملك الجليل تحيل على مرجعية تاريخية وعلى مواقف سياسية قد تكون هي المبرر الأساس وراء استثمار هذا الاسم داخل نص سردي معاصر كرمز للمقاومة والصمود والانفتاح والمدنية والتحرر والعدالة... كما تحيل على مرجعيات اجتماعية وثقافية وسياسية وقانونية... تتحدد من خلال السنن المرتبط بهذه الممارسات، مثل حالة الطالبة منار في رواية شرفة العار وحالة الوزير والأستاذ الجامعي والمحامية في رواية شرفة الهاوية. فهذا النوع من هذه الشخصيات يكون أكثر قابلية للتشكل في يد الكاتب إذ باستطاعته أن يكييفها مع حالات وتحولات دلالية جد معقدة؛ فهي قابلة أن توظف وفق حمولتها الدلالية الثابتة وانطلاقاً من معارف مسبقة عنها تزي هذه الدلالات، كما يمكن توظيفها وفق استعمالات إيديولوجية تؤوّل هذه الحمولة، ويمكن أن توظف بشكل مناف لطبيعتها كما حصل مثلاً مع شخصيات شرفة الهاوية حيث الوزير لا يتقن شيئاً مثلما يتقن انتهاك الأوطان، والأستاذ الجامعي لا يتقن شيئاً مثلما يتقن التحرش بطالباته، والمحامية لا تتقن شيئاً مثلما تتقن افتقادها لتحقيق العدالة لنفسها. وللشكل عند إبراهيم نصر الله أهمية بالغة في الإمساك بدلالات النص وفي ضبط لعبة الإضاءة والتعتيم وكذلك في استدراج القارئ إلى الاقتراب من دلالات معينة. ولعلّ تشظي الشكل والكتابة وتهجين اللغة وتكسير بعض المتصلات المتعلقة بالسياسة والجنس من القضايا البانية لفكرة التجدد والتجديد الروائي العربي كما أن القضايا المعرفية التي اشتغل عليها

1 - Hamon Philippe: Pour un statut Sémiologique du personnage ; Poétique du récit, Seuil, 1977 ; p , 123 -124.

نصر الله في أعماله تتميز بطابع خاص سواء فيما يتعلق بتشديد المجتمعات العربية الحديثة وتفاعلها مع الأحداث السياسية والاجتماعية، إضافة لما يندرج في خانة انتقاد المواقف والسلوكات السلبية والدونية. وما يعطي تفردا لهذه الخلفية المعرفية ارتباطها بالتخييل والتشخيص وذلك من خلال فضاءات تضيي النسبية والحيوية على المعرفة البانية لمسار السرد الروائي عند إبراهيم نصر الله؛ هذا المسار الذي كان من بين رهاناته الأساسية النضال الثقافي ضد العنصرية الصهيونية والزعة الشوفينية للثقافة الأمريكية ومركزية الثقافة الغربية والهويات الثقافية المغلقة في العالم والمنطوية على الذات. فقد ناضل من أجل قضيته الوطنية العادلة، القضية الفلسطينية، ولم تكن فلسطين بالنسبة إليه جغرافية مكان أُجبر والداه على الاقتلاع منه، بل كانت رمزا لكيانه الصميم ولجوهره كإنسان يبتغي الوصول لذاكرة عادلة تنصفه وتنصف وجوده وتعطيه استمرارية ومعنى وتسعى بالكلمة إلى البوح وتحرير تاريخ الخسارة والفقدان، عبر أشكال تتساوى لديه مع المضامين.

2 - الشعور وأسئلة الكينونة

إن التجربة الشعرية عند إبراهيم نصر الله، تضيء بصورة واضحة الهيكل الوجودي للحقيقة الإنسانية، ومهمة الشعر عنده تتبدى بشكل ملح في العودة لما يعطي معنى للإنسان والحياة؛ معنى الذات والوجود ومعنى الذات في الوجود. وأفق هذه التجربة يتحرك عند الشاعر في بعض قصائده بين الكينونة والعدم، السؤال والبحث عن الجواب؛ لقد كان الموت حاضرا بثقله كأنشغال جوهرى وهو اهتمام قديم قدم ملحمة جلجامش، الذي اكتشف حتمية الموت من خلال موت أنكيبدو¹ واكتشاف حتمية الموت فعل أساسي وجوهري، لأنه يمكن الذات من خلال القلق، وتأمله من اكتشاف مجاهلها/ حقيقتها. فما من سبيل لتحقيق الذات والتغلب على طابعها الفاني سوى مواجهة الموت بإعلان الحرب

1 - لمزيد من التفصيل يمكن العود لكتاب د محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي

القديم: دراسة في ملحمة جلجامش/ منشورات عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 1997.

عليه. هذه المواجهة إثبات للفروسية، استحقاق سعيد لحياة بطولية متعالية وهو ما يمكن الإمساك بناصيته في قصيدة (راية القلب)، حيث كان حوار الشاعر مع الموت تحديًا:

قلت يا بحر نسق رماحك، قد أقبل الموت/ يا موت عُد/ هنا الكائنات أتت
رضعت من حليب جموح/ ولم يك في الأرض قبلك حقد/ قلت: فلتكن
الحربُ يا موتُ فلتكن الحرب/ قال: أنا الجزرُ/ قلت: أنا المد¹

فالموت فعل يمتلك قوة الإضاءة، فكأنما تكون الذات غارقة في عماها وعندما تكتشف موتها تنفتح في أعماقها طاقات وإمكانيات عدة لمعرفة الوجود، ومعرفة ذاتها وتجاوزها، ولا يمكن لهذه المعرفة أن تتم دون جدلية السؤال والجواب،

لاهتًا أركض/ قاطعًا العمرَ بين سؤال وآخر/ باحثًا عن إجابة أستريحُ على
عتباتها قليلاً/ لأواصل أسئلتِي.²

إن قلق السؤال والخوف من المصير، والإحساس الفجائي بهشاشة الحياة وما تلتقطه الذات من سمات واقعها وعصرها من أزمت وما تلقاه من مظالم، وما تعيشه من انكسارات وتناقضات أضفى على الشاعر مسحة مأساوية أقحمته ضمن القضايا الإنسانية الوجودية التي لا يترأى له ما يدل على المأل. والشاعر في عمق هذا المسار لم يلتقط أي علامة دالة على الخلاص، إلا من عدو أزلي سكن الذاكرة.

يتفتتُ هذا الزمانُ فأسقطُ/ من مشهيدٍ لا يُطلُّ على الغدِ/ من نجمةٍ لا
تدلُّ الطريقَ إلى أي شيءٍ/ سأرتاحُ أين؟/ ولي كلُّ هذا العدوِّ هنا عابراً/ أو
مقيماً بذاكرتي؟!³

1 - إبراهيم نصرالله: راية القلب. الأعمال الشعرية. ص: 576.

2 - إبراهيم نصرالله: شرفات الخريف، 1996 (اندفاع 1).

3 - إبراهيم نصرالله: لو أنني كنت مايسترو الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت، ودار الاختلاف - الجزائر، ودار مكتبة كل شيء في فلسطين. قصيدة (الشاعر) مهداة لطرفة بن العبد.

هذا الحس التراجيدي جعل الشاعر يستدعي طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي القتيل الذي قتل كما يشتهي هو، لا كما يشتهي الموت¹، استدعاه كصورة مرجعية ثقافية وتاريخية وتراثية تضيف على نضبه رمزية مكثفة في هيئة من التناس؛ يلي حاجة الشاعر إلى إنجاز عمل فني يتجاوز فلك التقليد ويشارك المتلقي في إدارة الحوار مع قامات أدبية وتاريخية على السبيل التوازي.

بعيدا فيك أو فينا/ لنا الأسماءُ نفسُها/ وإن تغيّرت الحروف/ والنهايةُ
نفسُها/ وإن تغيّر القاتل/ والقصاصدُ نفسُها/ وإن تغيّر الزمان/ والوجودُ
نفسُها/ وإن اختلفت الأبوابُ التي توصلُ كلما جننا من بعيد/ ما الذي
يعنيه إذن أننا ولدنا في زمنين مختلفين؟!/ ليس أكثر. ربما. من أن نكون
أوفياءً قليلاً، ونتذكر!!²

فقد تتساوى الأسماء والأمكنة والوجوه وتنصهر الأفاق بين الماضي والحاضر والنهاية واحدة

1 - هناك قصة تاريخية تذكرها مصنفات الأدب العربي مفادها أن ملك الحيرة عمرو بن هند بعث رجلا من تغلب لقتل طرفة بن العبد، ولما جيء بطرفة إليه قال له: "إني قاتلك لا محالة. فاختر لنفسك ميتة تهواها". فقال له طرفة: إن كان لا بد فاسقني الخمر وأفصديني" ففعل به ذلك. عانى طرفة بن العبد من ظلم ذوي القربى وهو أشد مضايقة وأشنع ضروب الاستبداد لأنه يأتي من الأيدي التي نعها والتي نظن أننا نأمن شرها. ولم تمهله المؤامرات التي حيكت ضده كثيرا فمات في ربيع عمره عن (26) عاما، حيث قتل بوحشية لا لذنب اقترفه سوى إبداعه وإن كان بالهجاء. سقط الشاعر ضحية لخلاف شخصي مع الملك. وإذا صحّت الرواية حول موته وأنه حمل الكتاب الذي يحوي أمراً بقتله، فإنّ هذا يدلّ على مدى عزّة النفس والثقة التي كان طرفة يتمتع بها، وإن كانت في آخر الأمر، سبب مقتله. بمقتل طرفة بن العبد في ربيع عمره وفي بداية عطائه حرم عشاق الأدب العربي والباحثين في علوم الصحراء والبدواة وتاريخ العرب من مصدر خصب كان يمكن أن يزودهم بالمعلومات التي يحتاجونها، وحرّموا من عطاء خيال مبدع. وتبقى معلقة الشاعر شاهدا على مجد صاحبها وعلى الظلم والنهاية المؤلمة للشاعر. للمزيد بخصوص قصة مقتله، يمكن العودة إلى ذيل القصيدة 9 من الديوان، وابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ص115.

2 - إبراهيم نصر الله: لو أنني كنت مايسترو، مصدر سابق، قصيدة طرفة بن العبد.

ما دام مشهد المعاناة والقتل وفقدان المكان والهوية قائما فيلتحم الآن والهنا بالهناك. والوفاء لهذه الذكرى وهذا التراث ظاهرة ميّزت شعراء الحداثة، كونه يشكل لحظة وعي جديدة بقضاياها، ليس فقط في أبعادها الجمالية بل الدلالية أيضا. واستدعاء طرفة هو تكثيف للمجد الأدبي والسياسي الرافض لطبائع الاستبداد والاستملاك واختزال لرؤية فلسفية وجودية عميقة، وهو بالمقابل، استحضار لرمزية العمر والموت والفروسية وعزة النفس ونهاية الكبرياء.

سَتُّ وعشرون لا تكفي كي تقول أنك قد عشت/ لكنها كافية كي نشهد أننا
عشنا بك/ فالنهاية آخر الأمر هي الحكاية كلها/ ها نحن نجلس مدججين
بهدوء قتلى أزيلين/ كي نصطادَ نهايةً صالحَةً/ لا نحسدُ سوانا لأنهم عاشوا
كما شاءت الحياة/ نحسدُهم أنهم ماتوا كما لا يشتهي الموت¹

إن هذا الوعي الحاد بالقتل في عز الشباب والحث الميرير عبر السؤال والجواب ولد لدى الشاعر إحساسا باليأس وبسرد حكاية من حكايا الخريف القاتل تصفر أوراق عمر البشر، وهذه العاشقة غدت ورود خديها شاحبة صفراء تعبت بها الريح القاسية بلا رحمة تأخذها إلى هاوية الاصفرار، وما من حقيقة إلا تلك التي ترسمها لعبة الصدفة والضرورة (يحبني لا لا يحبني)، وما من خلاص سوى ذلك الذي يتحقق عبر مراوغات اللغة حيث «الكلمات والمعاني قوس قزح وقناطر وهمية رميت بين الموجودات المتباعدة أبدا»² كما يقول نيتشه، وحيث يمكن للشاعر أن يمدد حياته من داخل الموت، من داخل الخريف،

في البدء لم يكن هذا الخريف/ كانت عاشقة/ قد أمسكت بزهرٍ ورَدَدَتْ في
سَرِّها/ يُحبني، لا لا يُحبني، لا لا يُحبني/ وحينما انتهت أوراقها ولم
يُجب أحد/ مضت إلى الحقول واحداً فواحداً/ لتسأل الزهور والأبد/

1 - المصدر السابق.

2 - عبد الكبير الخطيبي: الاسم العربي الجريح، ترجمة محمد بنيس، منشورات الجمل، العراق، لبنان.

ط1. 2009 ص143.

جوريّةً، زنبقَةً، نَوّارَةً/ يُحِبُّني، لا لا يُحِبُّني، يُحِبُّني، لا لا يُحِبُّني/ ولم يُجِبْ
أحدٌ/ مضتْ إلى الأشجار تخصفُ الورقَ/ يُحِبُّني، لا لا يُحِبُّني، يُحِبُّني، لا لا
يُحِبُّني/ ولم يُجِبْ أحدٌ/ فاصفرتِ البلدُ¹

إن الخريف الذي يرمز إلى التبدد والموت، هو فاتحة الحياة، فلولا الخريف لما أطل شتاء الولادة، وربيع الشباب وصيف النضج. والولادة سر التفتح والبيدانية... وهذه هي سيرورة الحياة. وهذه الرؤية تفاؤلية ممتلئة بالأمل والإيمان بالحياة في آن، وتنفي كابوس الضياع والموت والأفول.. إنها تضع الخريف في دورة الحياة الطبيعية فيكتسب قيمة إيجابية تجعله نقطة مرور لولادة جديدة تسلّم بأمل وضرورة الانتصار على الخريف والقتل، لإعادة الحياة إلى ربيع العمر وإلى الوطن الرائع. وهو حلم رائع يتوج الأمل المنشود للإنسان العربي التائه، فليس أجمل من معنى الوطن الذي يتشكل فيه ملامح الانتماء والحرية والعدالة وحق الحياة، وهي القيم التي ما انفك شاعرنا يمجدها في كل إبداعاته.

ونحلمُ أن يُزهَرَ العمرُ يوماً/ ويكون لنا وطن رائع.²

لم يقتصر الأمر عند إبراهيم نصر الله على استدعاء طرفة بن العبد الشاعر، بل استدعى كذلك شخصية جورج حبش وأهدى له قصيدة الحكيم³. فلكل ثورة حكيم وللثورة الفلسطينية حكيم واحد، هو جورج حبش كما أهدى قصيدة القديس للناقد الكبير إحسان عباس ولا يتعلق الأمر ههنا بتذكر حالات الفقدان أو البكاء على أطلال، الهام عندنا هو استحضار منجزها الفكري والثوري لمواجهة الانكسارات الحاصلة في بلداننا بدكتاتوريتها

1 - إبراهيم نصر الله، حجرة الناي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2007.

2 - إبراهيم نصر الله: المطر في الداخل، (أزهار عدن)، الأعمال الشعرية. ص 140.

3 - تتعدّد في كلّ شيء

وتَسْكُنُ في أرضِ قلبكِ بحرًا ونهرًا/ ومعنى لهذا الجمالِ الذي يجعلُ الورْدَ أطيْبَ/ تتعدّدُ في
سُحْبٍ ودروبٍ/ وفي شجرٍ للقصائدِ أقربٍ/ ولم تُكْ نجمًا على مسرحِ الوقتِ/ أو مطرًا عابرًا في
الكلامِ/ ولا خطوةً تستدرُّ الحقيقةَ في شبه حُلْمٍ/ ولا وطنًا عاليًا في الغمامِ/ ولا نصفَ اسم
لهذا الحَمَامِ الأليفِ المهذَّبِ/ قالوا لنا: الماءُ في النَّهرِ عَذْبٌ/ فقلتُ لنا: الماءُ في البحرِ عَذْبٌ!!

المتخلفة في كل شيء حتى في أشكالها القمعية ما يجعل استثمار مثل هذه الرموز في القصيدة أمراً ممكناً لمنهضة الاستبداد في ظل انتفاضات تتخللها ثقوب وبياضات لم يكن وراءها مشروع ثوري ولا تنظيم سياسي محكم يمسك بدفة السفينة ولذا فهي في حاجة إلى حكيمة يوجهها وثائر يحميها. «تصور قصائد "المايسترو" عالماً موحشاً يدفع نحو السوداوية والاعتراب، ويعمق الشعور بوطأة الظلم والاختلال الشديد في منظومة القيم الإنسانية، وما يترتب عليه من شروخ في الروح الإنسانية وقدرتها على الصمود في عالم تتسيده قوى القمع والسلب والاضطهاد وسحق إنسانية الإنسان. على أن هذه الرؤية لا تستقر في دائرة مغلقة الإحكام، ذلك أنها لا تخفق في التقاط العديد من النماذج الإنسانية المضيئة التي ترفع من شأن الإنسان والقيم، بل وتلتزم بهذه القيم حتى آخر رمق في حياتها. مثال ذلك قصيدة "القديس" عن إحسان عباس، وقصيدة "الحكيم" عن جورج حبش. بل إن بعض القصائد تلتقط صوراً لمناضلين غربيين من أنصار الحرية والعدالة في العالم من قدموا حياتهم انتصاراً لهذه القيم ومن بينهم نموذج الصحفي الإيطالي رفائيل تشيريللو" الذي قتله الإسرائيليون "وهو يبحث عن الحقيقة في شوارع رام الله". وهكذا يجيء هذا الديوان ليؤكد قدرة الشاعر المتواصلة على إبداع خطاب شعري جمالي حتى وهو يصور عالماً يزداد تهاة وقبحاً وتوحشاً»¹.

يقول المفكر البرتغالي أورتيجا إيغاسي: إن الإنسانية تنقسم إلى صنفين: "الشعراء والآخرين" وإبراهيم نصر الله من القامات الشعرية العربية المعاصرة، الذين رسموا الوجد الفلسطيني وجسدوا آلامه ومآسيه ومقاومته عبر قصائد تقفز خارج المفهومات السائدة.. وهي قصائد رؤياوية بطبيعتها، والرؤيا تغيير في نظام الأشياء وفي نظام الكلمات وفي نظام النظر إليها². وإن التلمي والتأمل في قصائد إبراهيم نصر الله الشعرية يضعني، للتو، في صلب مشروع

1 - د. محمد عبد القادر: «مايسترو» إبراهيم نصر الله.. تأمل الذات والوجود، جريدة الدستور الأردنية

الجمعة، 11 سبتمبر / أيلول، 2009.

2 - أدونيس: زمن الشعر طبعة ثانية منقحة ومزودة دار العودة بيروت ص: 11.

شعري عربي لافت يُبَوِّئُ صاحبه ما يكفي من الإدراك الثقافي والذكاء والتمثّل الدقيق للوجود، وما أضفى عليه عمقا تشخيصه الدقيق لتراجيديا شعبه، الشيء الذي سيمنحه مكانة نادرة في الشعر العربي المعاصر. فعلى يديه ستدرك لا القصيدة العربية الراهنة ولا اللغة العربية، في حدّ ذاتها، درجة من العمق والجمال والحيويّة والتعبيرية. فالشعر عنده كشف عن تصدعات الكائن والكينونة. ولم تكن قصائده موجّهة لفلسطين وحدها، ولكن لإنسانية متعطّشة للحرية في كل زمان ومكان وهي القيمة النبيلة التي شكّلت محرّكه ووقوده. والواقع أن هذا التجريب يعكس تجربة أصيلة تنبع من الذات الشاعرة إلى عالمها وموقفها من جمالية الكتابة، كما أن انتماء الذات الحميمي لواقعها واستشرافها لأفق مستقبلها لم يمنعها من أن تتناصّ مع تراثها. وبصدد هذا التجريب، يمكن القول: «إن الشعرية العربية تمتاز بخاصية ما فتئت تتنامى تتمثل في تداخل أجناس الكتابة بالميل إلى تسريد الشعر أو مسرحته ميلا متفاوتا بين شاعر وآخر. كما أن هذه الشعرية تسعى إلى الاغتناء من الثقافة الأصيلة والوافدة، القديمة والحديثة على السواء والنهل من تجربة الذات والمجموعة وتوظيف كل الطاقات الحيوية والجمالية الثاوية في الذات الكاتبة توظيفا خلاقا يحقق لها شروط الإبداع»¹

إن سلاح إبراهيم نصر الله في التعبير عن الشتات الفلسطيني ومواجهة كل أشكال التسلسل العدائي والقهري في بعده المادي هو التمسك بالنسق الثقافي والرمزي سردا كان أو شعرا... لأنه في اعتقادنا هو السنن الحقيقي والفعلي للمقاومة في ممارستها الواعية «وفي مواجهة كل محاولات الطمس، والإزالة والإقصاء. إن المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان، وبهذا الفهم، أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمية»² بلغة إدوارد سعيد.

¹ - خالد الغريبي: في قضايا النص الشعري مقاربات نظرية وتحليلية مكتبة قرطاج للنشر والتوزيع، ط.1. مارس 2007، ص: 296.

² - إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة، حوار دايفيد باساميان، ترجمة، علاء الدين أبو زينة، دار الآداب لبنان ط.1. 2006، ص: 143.

3- خاتمة

حاولت في هذه الدراسة تأمل تجربة إبراهيم نصر الله السردية والشعرية بدءا بسيرته وما كان لأجواء المخيم من أثر ظل وشما على جسده يعلن عن ذاته في الحضور والغياب في معاناته وفي بناء حلمه وأفكاره ومواقفه. ومن ثم عرجت على إبداعاته الشعرية والسردية الغنية والمتنوعة والتي قاربناها على مدار هذه الدراسة وفق موضوعتين أساسيتين:

تتعلق الموضوعة الأولى بالكتابة وإنقاذ الذاكرة ووقفنا فيها من جهة أولى، على السرد والاشتغال الجمالي على التاريخ وكانت الملهمة الفلسطينية (قناديل ملك الجليل وزمن الخيول البيضاء وطيور الحذر) نموذجا لذلك. ثم تناولنا من جهة ثانية، عالم السرد باعتباره إعادة توطين للهوية المفتتة وكانت الشرفات (شرفة الهديان وشرفة رجل الثلج وشرفة العاروشرفة الهاوية) عنوانا لهذه المقاربة. وكان الخيط الناظم بين هذين المحورين يتبدى في جدل الذاكرة والتاريخ. فذاكرة السرد استلهمت التاريخ الفلسطيني ووقائعه، متمثلة منجزاته وقيمه ومفارقاته الساخرة ومتوقفة عند الجروح والندوب التي تركها جريانه نتيجة تبدل أحداثه السريعة، فقد بدا أكثر قسوة وأشد وطأة جزاء السياسات العربية المتعاقبة التي حمل وزرها الإنسان الفلسطيني. لذا نرى أن الروايات كانت أكثر توازنا في إقامة مثل هذه العلاقة. وهي في ذلك تستعيد التاريخ وفق رؤية جديدة ووفق فهم مغاير، بإضاءة كل الحقائق التي لحقها التشويه والتزييف والمصادرة. إنه حلم إنسان للوصول إلى ذاكرة عادلة عبر سيرورة توسطية يؤثثها فضاء السرد القادر على البوح وتحريك تاريخ الخسارة والفقدان، عبر أشكال تتساوى لدى إبراهيم نصر الله مع المضامين.

أما الموضوعة الثانية فوقفنا فيها على ملامح من تجربة إبراهيم نصر الله الشعرية، وكان سؤال الكينونة في الشعر هو جسرا للعبور نحو عالم يذهب بالذات نحو مطلقها الإنساني والكشف عن معنى الذات والوجود ومعنى الذات في الوجود. وقد ظل أفق هذه التجربة يتحرك عند الشاعر في بعض قصائده بين الكينونة والعدم، السؤال والبحث عن الجواب الماضي والحاضر الخريف والربيع... وما أضفى على هذه التجربة تعبيرية متفردة انفتاحها وقدرتها على الكشف وتشخيصها لمأساة الإنسان المعاصر، والإنسان الفلسطيني المكتوي

بنار الشتات تحديداً. وكان ذلك بواسطة صور ورموز وحكايا فنية مصوغة في قوالب مختلفة ومتنوعة معرفياً وجمالياً وإيقاعات تتجاوز اغترابات الذات وتجعل من القصيدة سكناً لها.

ورغبة في الكشف عن بعض أوجه هذه التجربة الفريدة نورد بعض الدراسات التي قاربتنا بمستويات آفاق تلقى مختلف ووفق رؤى إدراكية متفاوتة.

4- كتابات تناولت حياة الأديب وإنتاجاته

1-4 الكتب

- 1- عبيد، محمد صابر. شعرية طائر الضوء. جماليات التشكيل والتعبير في قصائد إبراهيم نصر الله. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.
- 2- أحمد، مرشد. البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.
- 3- عبيد، محمد صابر والبياتي، سوسن. الكون الروائي. قراءة في الملحمة الروائية (الملهاة الفلسطينية). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006.
- 4- نشوان، حسين. عين الثالثة. تداخل الفنون والأجناس في أعمال إبراهيم نصر الله الإبداعية. الأردن: منشورات وزارة الثقافة، 2007.
- 5- مجموعة باحثين. سحر النص: من أفق السرد إلى أجنحة الشعر. قراءات في المدونة الإبداعية لإبراهيم نصر الله. أمانة عمان: منشورات الدائرة الثقافية. وبيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007.
- 6- عبد القادر، محمد. فضاء التجاوز. قراءات تطبيقية في إبداعات شعرية وروائية لإبراهيم نصر الله. عمان: دار الشروق، 2012.
- 7- عبيد، محمد صابر والبياتي، سوسن. رواية ما بعد الحداثة- قراءة في شرفات إبراهيم نصر الله. بيروت: دار ضفاف، فلسطين: مكتبة كل شيء والمغرب: الأمان، 2013.

2-4 الأطارح والرسائل الأكاديمية

- 8- جوثير، كلوتيلد. رسالة ماجستير حول رواية (عُو). باريس: جامعة إنلكو، 1998.
- 9- الدويري، أكرم. رسالة ماجستير حول تجربته الشعرية. إربد: جامعة اليرموك، 1999.
- 10- شعبان، هيام. رسالة ماجستير حول تجربته الروائية. إربد: جامعة اليرموك، 2001.
- 11- آريو، بورنيلا. رسالة جامعية حول ديوان (شرفات الخريف). إيطاليا: جامعة نابولي، 2001.
- 12- تريولزي، سارة. رسالة جامعية حول رواية (عو) مع ترجمة لها. دم: جامعة روما، 2001.
- 13- باناديس، تشينزيا. رسالة جامعية حول رواية (طيور الحذر). دم: جامعة نابولي، 2003.
- 14- أحمد، مرشد. البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله. رسالة دكتوراه. دم: جامعة الزاوية، 2004.
- 15- غاتين، مايلا. رسالة جامعية حول روايته (أعراس آمنه). دم: جامعة روما، 2005.
- 16- هنيي، سميرة. رسالة ماجستير حول روايته (طيور الحذر). باريس: جامعة إنلكو، 2005.
- 17- رجب، صالح حسن. التشكيل الجمالي في شعر إبراهيم نصر الله. رسالة ماجستير. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية- قسم الدراسات الأدبية واللغوية، 2005.

3-4 الدراسات والمقابلات

- 18- بيانكا ماضية: الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله: الشعر قصة حب طويلة والرواية زواج راسخ والحرية لا يمكن اختصارها بكلمة. مجلة رابطة أدباء الشام
<http://www.odabasham.net/show.php?sid=15995>
- 19- نبيه القاسم: إبراهيم نصر الله في "شرفة الهذيان" والبحث عن حرّية الإنسان العربي المفقودة في هذا العالم العربي

<http://www.nabih-alkasem.com/nasrallah2.htm>

20- نبيه القاسم: إبراهيم نصر الله في قصائده القصيرة مبدع يعرف كيف يُعيد للشعر

حيويته <http://www.nabih-alkasem.com/nasrallah1.htm>

21- محمد عبد القادر: «مايسترو» إبراهيم نصر الله.. تأمل الذات والوجود، جريدة الدستور الأردنية الجمعة، 11 سبتمبر/أيلول، 2009.

22- إبراهيم نصر الله علي: شرفة الهذيان حاوره: سميرة عوض جريدة الرأي الأردنية - الجمعة 23 أيلول 2005م

23- إبراهيم نصر الله: محاولة لعدم الاكتفاء بالنفس ومنجزها مرجعا وحيدا لفهم العالم. أجرت الحوار: سميرة عوض جريدة (الرأي) الأردنية نيسان 2000
<http://www.jehat.com/Jehaat/ar/Ghareeb/2005/nasralla.htm>

24- إبراهيم نصر الله نحن مصابون بلعنات المكان، التاريخ، والصور الجاهزة حوار آمنة الربيع مجلة نزوى العدد 67. السنة 2011.

25- إبراهيم نصر الله: الرواية تحيي كآبتها من خطر الأنظمة المستبدة! حوار: عماد الورداني <http://www.alquds.co.uk/?p=44149>

26- إبراهيم خليل: إبراهيم نصر الله؛ وقصيدة المَحْوَرِ النصِّي، صحيفة قاب قوسين <http://www.qabaqaosayn.com>